

الفصل الثالث

أدوار الأم ومسئولياتها في تدعيم وتعزيز الصحة النفسية لأطفالها



لا شك في أن الأم هي أول وأفضل من يُربى أطفالها ، وهي أول وسيط للتنشئة الأسرية والاجتماعية للطفل ، فهي أول من يتلقاه بالعناية والرعاية والاهتمام ، وهي التي تبدأ في تنبيه العواطف والرموز التي تعطي الطفل الطبيعة الإنسانية . والأم هي أهم شخصية في حياة الطفل ، ولما كانت عواطفه مرتبطه بها ، ترتب على ذلك أن كلمتها وأعمالها ومعتقداتها وأفكارها أهم عنده بما لا يُقاس بغيرها ، فهي التي تمنح طفلها صحته النفسية ، واستواء سلوكه ، أو علته النفسية ، واعوجاج سلوكه .

• الإعداد للأمومة :

إن إعداد الأم للقيام بدورها التربوي تجاه أطفالها ، وتنمية قدراتها والارتقاء بمهاراتها الفكرية والثقافية والاجتماعية ، يعنى الارتقاء بأدائها في تنشئة جيل سوى مستنير ، وذلك يستوجب إدراك المجتمع بمختلف مؤسساته الرسمية والشعبية لأهمية هذا الدور ، ويستوجب أيضاً توفير الخطط والإمكانات لتحقيق أفضل الشروط لإعداد الأم في الثقافة العربية وما تحظى به من احترام وتقدير ، فإنها لا تحظى بالكثير قبل أن تصبح أمًا ، إذ تتراوح نسبة الأمية بين النساء فوق سن 25 سنة في العديد من البلدان العربية بين 78 و 96.6% وكما يُبين تقرير اليونسيف أن أوضاع الأطفال في العالم لعام 2000 م أن أكثر من 65 مليوناً من الأطفال في المناطق العربية يُعانون من الأمية ، وغالبيتهم من الإناث. إن هذا القصور في عدم توفير فرص النمو للأطفال والإناث خاصة سيترك آثاراً سلبية خطيرة على الدور التربوي الذي ستقوم به الأم نحو الأجيال القادمة ، وذلك يؤسس لمشكلات مزمنة بعيدة المدى في مختلف ميادين الحياة الاقتصادية والتربوية والثقافية والاجتماعية .

إن أهمية الدور التربوي للأم ، وتأثيره الخطير في نمو الطفل من مختلف الجوانب العقلية والنفسية والاجتماعية والوجدانية ، يجب أن يحملنا على التفكير في وضع الفتاة العربية أم المستقبل والمریبة الأولى .



• تطوير علاقة الطفل بأمه :

- نستطيع أن نتبع تطور علاقة الطفل بأمه من خلال سُلّم النموّ التالي :
- 16 أسبوعًا : يعرف الطفل أمه .
 - 20 أسبوعًا : قد يبكي الطفل إذا ما فارقت أمه .
 - 40 أسبوعًا : يظلّ يطلب الطفل المزيد من أمه ، لكنه يبدي نحوها أيضًا استجابة إيجابية خاصّة .
 - 18 شهرًا : يُظهر الطفل المحبة لأمه حين يكون متعبًا أو في مأزق ، وقد يرفض أن يتولاه أحد غير أمه عند قضاء الحاجة .
 - 21 شهرًا : أكثر استجابة لأمه ، ينادى الطفل على أمه ساعة النوم لتعود إليه .
 - سنتان : أكثر إظهارًا للمحبة نحو أمه ، وأكثر اعتمادًا عليها ، يتعلّق بها ساعة النوم ، يقبل أن يجلس على حجرها ويتقبّل منها مظاهر المحبة ، يبدأ في مطالبة أمه بأن تفعل أشياء مُعيّنة ، كأن تُفادر الغرفة وهو يُطعم نفسه بنفسه ، شديد الإصرار على مثل هذه الطلبات .
 - سنتان ونصف : يكون الطفل على خير حالاته وأسوأها مع أمه ، معظم نوبات غضبه موجهه نحو أمه ، لكنه مع ذلك يُظهر نحوها حُبًا جمًّا . يتلوى الطفل في يد أمه عندما تُعالج شئونه ، قد يطلب أمه إذا ألم به شيء أثناء الليل ، أقلّ تعلقًا بها وملزمًا لها واعتمادًا مباشرًا عليها .
 - ثلاث سنوات : يُحسن معايشة أمه ومسائرتها ، قد يكون الطفل عونًا حقيقيًا للامّ في أرجاء البيت .
 - أربع سنوات : يعتز بأمه اعتزازًا كبيرًا ، يُفاخر بها خارج المنزل ، وينقل عنها باعتبار أن كلامها حجة وثقة ، يقاوم سلطان أمه بالكلام وبالجسم معًا .
 - خمس سنوات : يبدو أن الأم تكون مركز عالم الطفل ، علاقته بها سلسة بهيجة غير متوترة أكثر ممّا ينبغي ، يُحب أن يفعل الأشياء صحيحة مطابقة لرغبات أمه ، يُحب أن يساعدها ، وأن يكون قريبًا منها ، لا يحتاج إلى انتباه أمه كاملاً وإن كان يُحب

وجودها معه ، عطوف على أمه إذا مرضت ، يحتاج إلى إشراف أمه على استذكار دروسه ويطلب به ويتقبله .

- ست سنوات : لم تعد الأمّ مركز عالم الطفل ، بل يحتل الطفل هذا المركز ، وهذا الانفصال عن الأمّ لم يتحقق بعد ، وإنما هوفى سبيل التحقق ويؤدى إلى صعوبات كثيرة فهو يتشاجر مع أمه ، شديد الحساسية لتقلبات أمه المزاجية ولانفعالاتها ، ويستجيب استجابات متناقضة نحو أمه ، ويقول إنه يُحبّها ثم يقول إنه يكرهها ، لا يرغب الطفل فى قبول المساعدة التى يحتاج إليها من أمه ، لا يُحسن تقبّل التعليمات
- سبع سنوات : يُحسن معايشة أمه ومسايرتها بوجه عام ، العلاقة بينهما أحسن مُصاحبة ومعايشة ، وأقلّ حِدّة وتوتّرًا عن ذى قبل ، يحب الطفل مُجادلة أمه ، يطيع أمه طاعة حسنة جدًّا ، قد يكون فى منتهى الافتخار بأمه .
- ثماني سنوات : يكون الطفل مشّت الفكر مرتبكًا مع أمه ، يُريد الظفر بكل انتباهها ، يطيع الأمّ إذا صاغت تعليماتها بالطرق التى تروقه وتُسره ، شديد الحساسية حيال أمه ، يُحب إدخال السرور عليها ، قد يغار من أمه وأبيه عندما يراهما معًا .
- تسع سنوات : تقلّ مطالبته بانتباه أمه وبوقتها ، لأنّه متمركز حول نفسه ، تكون العلاقة أسهل وألسس ما دامت أمه تعامله بالاحترام الذى تقتضيه زيادة نضجه ، يستجيب الأولاد الذكور - بصفة خاصة - بالثورة على مُطالبة أمهاتهم لهم بالنظافة والأناقة ، بعضهم عديم الاكتراث بتعليمات الأمّ وتحذيراتها وتقريعها أو لومها ، بعضهم يتجهّم ويمجر ويغفر لأمه الأخطاء ، والبعض الآخر جرىء ومُجادل لا يُحبّ أن تُذكره أمه بأنّه لا يزال طفلًا صغيرًا .

• تعلق الطفل بأمه أو الحرمان منها ومدى تأثيره على الصّحة النفسيّة:

نظر علماء النفس - وإلى وقت قريب - إلى العلاقة بين الأمّ والطفل على أنها تنشأ وتتمو على هامش الدوافع الأولية ، فالطفل يتعلّق بالأمّ لأنها تُشبع حاجاته الفسيولوجية خصوصًا حاجته إلى الغذاء . إلا أن الدراسات الحديثة أدت إلى مراجعة نظرية التعلق التقليدية مراجعة جوهرية ، إذ أوضحت أن التعلق حاجة أساس من حاجات النمو ، حاجة قائمة بذاتها ومستقلة عن الحاجات الأخرى ، حيث يظهر سلوك التعلق Attachment

Behavior ويتطوّر بمعزل عن إشباع الحاجات الفسيولوجية الأخرى . ويُنظر إلى التعلُّق الآن على أنه دافع أولي - كغيره من الدوافع والأساس - يتمتع بوظيفة بيولوجية نفسية مهمة .

ويُعَدُّ التعلُّق - من وجهة النظر هذه - حاجة أساس ، تُمكن الطفل من النمو نمواً سوياً من النواحي البيولوجية والنفسية والانفعالية والاجتماعية . وتُمكن الأم من تحقيق ذاتها عبر ممارسة الأمومة .

وقد أوضح "أريكسون" Erikson أن تكوُّن الشعور بالأمن عند الطفل منذ العام الأول فيما أسماه "الأحاساس بالثقة" أو التصديق Sense of trust ، وهذا الإحساس يعتمد على أن الطفل يجد ما يتوقعه ، فإذا توقع الطعام وجد ثدي الأم الذي يقضى به على آلام الجوع الذي يقوده إلى القلق ومن ثم الاضطراب ، وعندئذ تكون البيئة المنزلية والمتماثلة في رعاية الأم محل ثقته، فيمكن للطفل الاعتماد عليها للإشباع الملائم كلما احتاج إليه، وهذا الإحساس هو الأساس في تكوين الشعور بالأمن . وكلما كبر الطفل أصبح مجال أهميتها أوسع من مجرد إشباع الحاجات الفسيولوجية ، فهو يتعلّم منها الحبّ ، لأنها هي التي أحبته أولاً .

لقد أصبح من الواضح أن خصائص تعلُّق الطفل بأمه تؤثر تأثيراً عميقاً في سلوكه ونموّه وتطوره ، فالعلاقة المتبادلة بين الطفل وأمه تتطلّب الثبات والاستقرار ، لأنّ تجربة الانفصال عن الأم قبل أن يبلغ السنوات الثلاث ربما كانت من أقسى التجارب التي يمكن أن يعيشها الطفل ، فيجب ألا يحدث هذا الانفصال إلا في حالات الضرورة القصوى ، وعند حدوثه ، يجب أن يعرف الطفل أين هي أمّه ، ويتأكد أنه سيشاهدها بعد حين ، وأنّ انفصالهما مسألة مؤقتة .

والقاعدة النفسية الاجتماعية تقول : إنّ تعكس صفو العلاقات الاجتماعية المبكرة يُمثل القاعدة لظهور أشكال الأمراض السلوكية الخطرة ، ويفترض علماء النفس بأن مخاوف الرضيع من فقدان الحبّ أو ما يعرف بـ "قلق الانفصال" ، يرتبط مباشرة بالانغلاق على الذات أو الاسترسال في أحلام اليقظة هروباً من الواقع .

وتظهر أعراض الحرمان من الأمومة بوضوح في حالات التفكك العائلي، وتُعتبر عاملاً رئيساً في اضطراب نموّ الطفل النفسي مادام تأثير خبرات الطفل في مراحل

نموه الأولى يمتد عبر مسار حياته ، فكل وجه من أوجه شخصيَّة الطفل قد تتأثر بفقدان الاهتمام والعطف الأمومي ، يدخل في ذلك ردود فعله الوجدانية ، ونظرته لنفسه ، وعلاقاته بالآخرين من حوله ، وكذا نموَّه العقلي ، وحالته البدنية .

ولأنَّ الأم هي أول شخص يبدأ معه الطفل إتصاله الشفهي بالآخرين ، فإن علاقتها مع الطفل تظلُّ أساسية ، ومن ثمَّ ، فالانفصال والغياب طويل المدى يولِّد مخاوف الفقدان لمصدر التعلُّق وهو الأم ، ويجعل الطفل مُعرضًا بشدَّة للغضب والإحباط وتوقف النموِّ ، ومحدودية العلاقات الاجتماعية عند الكبار من الأطفال . وانقطاع العلاقة بين الطفل وأمه من شأنه أيضًا أن يُصيب الطفل بهزة نفسيَّة عنيفة ، فقد ثبت أنَّه عند انفصال الأم عن طفلها ، فإن هذا يؤدي إلى توقف النموِّ الجسمي للطفل ، وقد تتخلف مهاراته الحركية إذا ما قورن بالأطفال الذين يظنون في رعاية أمهاتهم ، حتى وإن كان يلقي رعاية جسمية أوفر من الآخرين .

وثبت أيضًا أنه وحتى مع وجود الأم بشخصها إذا لم تتوافر لديها القدرة على الوفاء بمطالب الأمومة التي يحتاجها الطفل فإن ذلك سوف يقود لتأثيرات غير محمودة ، لقد وُجد مثلًا أن الرفض وعدم التقبُّل للطفل من جهة الأم في سنيه المبكرة قد تقود إلى عدم الارتياح والحساسية المفرطة والسلبية والعناد والإحباط ، خلافًا لتأثيراته السلبية على النمو الطبيعي للطفل في مرحلة المبكرة المتعلقة بالإدراك والذاكرة والنمو الاجتماعي والمشى والكلام والتغذية الذاتية وكذلك الإعاقات العقلية ، كما أن البرود العاطفي يقود إلى إشكاليات في التغذية والنوم والعدوانية وعدم الارتياح ، علاوة على أن الحرمان من عطف الأم له تأثيره على نموَّ الطفل اللغوي وقدرته على التعلُّق بالآخرين ، والتحكُّم ببواعثه الآنية ومطالبته بالإشباع المباشر لحاجاته ، واللامبالاة أو الفتور في الشعور والقلق وصعوبة التركيز في التفكير .

على أنه ينبغي أن ننبه بأن ظهور مثل هذه الأعراض التي ذكرناها أنفًا ، محكوم بعدة متغيرات منها : الطبيعة البيولوجية لتكوين الطفل نفسه وتأثيراتها الوجدانية ، ومرحلته العمرية ، ومعطيات الوسط المحيط به ثقافية كانت أم بشرية من أساليب تعامل وفرص تفاعل ، ومدى توافر بدائل مناسبة تحل محل الأم الأصلية حال تقصيرها أو فقدانها . إذ أن الأمومة تُشير إلى علاقات مع الطفل لا سلوك مُعيَّن لشخص بعينه دون غيره ، ممَّا يشير إلى أنَّ البديل قد يفي بالطلب متى توفرت فيه شروط الأمومة .

لذا يجب ألا نبالغ في تقدير التأثيرات السلبية للانفصال عن الأمّ ، وأن ندرك بأن تأثير الانفصال يتوقف على طبيعة المعاملة التي بدأ في تلقيها عند الانفصال ، هذا ما يؤكده المبحث النفسى الاجتماعى ، فالعلاقات الاجتماعية التي يشرع الطفل في بنائها تتوقف على ما اعتادت أمه أن تفعله وليس على انفصالها عنه من عدمه ، أى نوعية التفاعل الذى يتعرّض له الطفل مع أمه تحكم نوعية التأثير المتوقع للانفصال . كما أن القبول والتقبل من الآخرين يُسهل عملية تكيفه للوسط الجديد ، نلاحظ ذلك أحياناً في ميل الطفل لغير أمه ، على الرُغم من وجودها .

وفى المقابل قد يكون التعلُّق الشديد سبباً في قلق الانفصال إذ أن الطفل شديد الالتصاق بأمه ، لا يستطيع تحمُّل الانفصال نظراً لتعلُّقه الوجداني الشديد بها . وقد لوحظ بأن أطفال الثقافات التي يتبادل فيها الأفراد العناية بالطفل ، أقدر على تحمُّل مواقف الانفصال . وللعُمُر أيضاً تأثيره في تحديد نوعية المعانة من الانفصال ، فالأطفال الكبار أكثر غضباً من الصغار لانفصالهم عن أمهاتهم .

ونؤكد أيضاً أن بعض الدراسات قد أثبتت في هذا الصدد أن عزل الطفل بعيداً عن أمه مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ، فإنه سرعان ما يسترد قدرته على مبادلتها عواطفها ، فيعود بذلك إلى مظاهر نموه الطبيعي ، فإن امتد الحرمان العاطفي إلى خمسة أشهر أخرى فإن النمو العاطفي للطفل يتخلف بشكل ملحوظ عن النمو العاطفي لأقرانه ومن هم في سنه ، والأطفال الذين يحرمون نهائياً من أمهاتهم نتيجة الوفاة أو الطلاق مثل أطفال الملاجئ فإنهم يتغلبون - إلى حد ما - على هذا الحرمان العاطفي القاسي إذا كان لديهم بدائل للأمهات ، يقمّن بمثل وظائف الأمهات ، ويبادلنهم الحب والعطف ، مثل هؤلاء أحسن حظاً في سرعة نموهم من أقرانهم الذين لا يجدون بدائل للأمهاتهم .

عموماً .. الآثار ليست مطلقة ، والأبحاث الحديثة تؤكد الاستنتاج القائل بأن بعض الأطفال ممن تربوا على أوساط بديلة تمكنوا في مستقبلهم من الاندماج في المجتمع بكل ثقة ، وهذا يُشير إلى احتمالية تلاشي الانفصال في حالة وجود البديل الذى تتوافر فيه شروط الحضانة من حُسن العناية بالطفل ، والاهتمام بإشباع حاجاته البيولوجية والنفسية والاجتماعية .

• العلاقة المزدوجة بين الأم والطفل وتأثيرها في صحّة الطفل النفسيّة:

طبيعة العلاقة التي تربط الأم وطفلها من شأنها أن تؤثر تأثيراً مهماً وحيوياً على صحّة الطفل النفسيّة سلبيًا او إيجابًا . وإذا أردنا الحديث عن هذه العلاقة ، فإننا نقول :

○ أولاً : العلاقة التي تربط بين الأم وطفلها علاقة ربانية ، لا وساطة فيها ، فالأم تستطيع أن تفهم طفلها حدسيًا (والحدس Intuition هو المعرفة الناشئة دون إدراك لطرق وظروف تلقيها، ويُفسر على أنه قدرة خاصّة وفهم متكامل لظروف موقف مُشكّل "حدس فكري" . ومن مفهوماته أيضًا أنه السبب الأولي لل فعل الإبداعي الغائر في أعماق اللا شعور. والطفل يفهم أمه بالطريقة ذاتها، وفي حين تعجز كل الوسائل الأخرى في التواصل مع الطفل كما يحدث مع الأم . ولقد دلت بعض البحوث التجريبية الحديثة أن الطفل بإمكانه أن يميّز دقائق قلب أمه عندما تُسجل ، ثم يُعاد إسماعه إياها ، هو لا يزال في أسابيعه الأولى . ومن البحوث ما يؤكّد أيضًا أن الأم تُدرك الفروق الدقيقة التي يميّز بها طفلها عن غيره من الأطفال سواء الغريباء أم الأشقاء .

○ ثانيًا : الخصوصية الشديدة في العلاقة بين الطفل وأمه ، فالعلاقة بينهما علاقة خاصّة جدًّا ، نموذج مثالي ، قد يكون الأوجد الذي يكون فيه فردان كأنهما فرد واحد . في هذه العلاقة تسقط حدود "الأنا" و"الأنت" ، وفي هذه الثنائية المتحدة - بين الأم ووليدها - نجد كلاً من الوجودين يتعامل مع الآخر تعاملًا كليًا .

○ ثالثًا : هناك أيضًا علاقة تبادلية بين الطفل وأمه ، وهي التبادلية في التعامل والتفاعل، فالاستنارات والاستجابات دائمًا هي استنارات واستجابات متبادلة . ويمكننا القول بأن إيجابية الأم - في جانب كبير منها - تتحد بإيجابية الطفل نفسه ، وبمدى ما يدعوها إلى الملاحظة والمداعبة أو مُجرّد وجودها إلى جواره للاستئناس والاطمئنان .

○ رابعًا : العلاقة بين الأم وطفلها علاقة مستمرة وموصولة ، هذه الاستمرارية هي الضمان الوحيد لسويته ، وصحّته النفسيّة ، وسلامته للتدرّج والارتقاء والنموّ ، ضرورة أيضًا لضمان التدفق الوجداني المتصل ، لتيار الثقة والأمن والطمأنينة حتى يستطيع الطفل فيما بعد أن يواجه الحياة ، ويواجه نفسه بثقةٍ وحُبٍّ وتفهمٍ.

• دور الأم ومسئوليتها في تدعيم الصحة النفسية لأطفالها:

سنحاول في الصفحات التالية توضيح أدوار الأم ومسئولياتها نحو أطفالها لتحقيق الصحة النفسية المرجوة :

• على المستوى الفسيولوجي :

تبين الدراسات الحديثة تأثير الإرضاع الطبيعي في نمو الذكاء عند الطفل ، وأهمية التغذية المناسبة لهذا النمو ، وذلك يرتبط بالمستوى التعليمي والثقافي للأم ، وتكمن أهمية الإرضاع الطبيعي أيضاً ، من كونها تُسهّل عملية الإخراج (التعويد على النظافة) والهضم والفظام . والإرضاع الطبيعي فيه الكثير من الفوائد التي نذكر منها :

○ درجة حرارة اللبن الطبيعي تُماثل درجة حرارة الجسم طوال مدة الرضاعة ممّا لا يحدث أضراراً تنجم عن تغيير درجة حرارة الغذاء إلى معدة الطفل الأمر الذي لا يمكن الوصول إليه في حالة الرضاعة الاصطناعية .

○ لبن الأم مزود بعوامل المناعة ضدّ الأمراض والتي يستحيل توافرها في الرضاعة الخارجية ، بالإضافة إلى كونه مُعقماً بالخلقة الأمر الذي لا يتوافر في اللبن الخارجي .

○ مكونات لبن الأم تتغير يومياً وفقاً لاحتياجات الرضيع من حيث أنواع المعادن كالكالسيوم ، والمغنسيوم والحديد .. إلخ ، وكذلك من أنواع الفيتامينات، وغيرها والتي تتلاءم مع نمو الطفل وبروز الأسنان وما إلى ذلك .

○ التقام الرضيع لثدي أمّه بالإلهام الفطري الذي وهبه الله سبحانه وتعالى ، وامتصاصه اللبن بفمه مع الضغط على الثدي بيديه وإرجاع رأسه إلى الخلف مع كل مصّة يمصّها أمر يدعو للتأمل والتفكير .. ففيه بذل للمجهود الذي قد يكون نوعاً من الرياضة التي تفيد العضلات وال فقرات العنقية بالإضافة إلى مساعدته على الهضم ، كما أنه يفرس في نفس الطفل منذ نعومة أظفاره أن الحصول على الطعام يستلزم المجهود الذي لا يتوافر في الرضاعة الخارجية .

○ الأم التي تقوم بإرضاع طفلها من ثديها تزرع فيه الأمن والحُب والحنان ، فإن شبّ عن الطوق شبّ باراً بها غير جاحد أو ناكر للجميل .

هذا التنويه بالنسبة لوجوب أن تقوم الأم بإرضاع طفلها رضاعة طبيعية من

ثديها بدلاً من اعتماد التغذية بالرضاعة الاصطناعية التي تُعزز عند الأمهات الإحساس بالتقصير تجاه أطفالهن ويُغذى بالتالي الشعور بالذنب عندهن ، لذلك نحن نتوجه إلى هؤلاء الأمهات بقولنا : من الأفضل تغذية الطفل من الثدي ونظرًا للفوائد التي ذكرنا بعضها آنفًا إن كان باستطاعة الأم فعل ذلك ، لكن إن تعذّر عليها تأمين ذلك لأسبابٍ تخرج عن إرادتها ، فإن ذلك لا يعنى أنها عاجزة عن توفير مناخ التغذية الملائم لنموه السليم ، فلقد تبين في ضوء نتائج العديد من الدراسات المحققة في هذا المضمار ، أن لكيفية تقديم الثدي (أو الرضاعة الطبيعية) أهمية مماثلة ، فإن لم تتجاوزوه ، وبالفعل ، إن لم تتفرغ الأم للطفل الذي يمصّ الثدي فتناغيه ، وتداعبه ، وتوجه إليه شتى الرسائل الدالة (من الابتسام ، والنظر إليه ..) وهذا ما يمكن تأمينه أيضًا عند إعطائه الرضاعة الخارجية، لن تؤدي عملية التغذية مهامها المتنوعة ، فللابتسامة ، ومختلف الأنشطة المتبادلة بين الرضيع وأمه ، خلال عملية مصّ الثدي ، أهمية قصوى في تفعيل طاقات الطفل الكامنة (والتي يُولد مزودًا بها منذ الولادة) وتميئتها ، وقد وصف عالم النفس "جان بياجيه" ذلك عبر الصورة التالية: تبتسم الأم للرضيع فيرد الابتسامة التي تُفرح قلب الأم ، فتبتسم من جديد ، ويتوقف الرضيع غالبًا عن المصّ ليداعب يديه وجه الأم الحاني عليه والمبتسم له.. وهكذا .

ومن أدوار الأم الفسيولوجية أيضًا تعويد طفلها على النظافة ، هذا التعويد الذي فضلًا عن كونه أحد مقومات دور الأم ، وإنما يُشكل أيضًا أحد عناصر التكيف الاجتماعي المميز للإنسان السوي شرط ألا يتم قبل أن يتقبّل الطفل العالم الخارجى ، ولو بشكل بدائي . ثم أن عملية التعويد على النظافة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعملية الهضم التي تتم في البداية بشكل آلي ، لكنها سرعان ما تصبح رمزية إذ يحس الطفل بأهمية فضلاته بالنسبة للمُحيط (الأم بوجه خاص) فيتخذ من هذه الفضلات (بشكل لا واعي بالطبع) وسيلة تعبير عن رضاه تجاه الأم فيكافئها بقبول تلبية رغباتها في إخراج هذه الفضلات بالطرق المقبولة أو المعروفة ، أو على العكس حين يُعبّر عن انزعاجه منها فيرفض تلبية رغبتها هذه .

وللأم أيضًا أدوار مهمة في نظافة المأكل والمشرب والملبس لحماية المولود من الأمراض ، وأخذ الحيطه والحذر والوقاية من الأُمرا خصوصًا المعدية التي تنتقل عبر

وسائط مختلفة . ثم نجد النوم والعناية به وقضاء الحاجة في أوقاتها من ضروريات الأم التربوية والنفسية في جانبها الفسيولوجي.

• على المستوى العقلي :

يتجلى دور الأم على هذا المستوى في تعليم الأطفال ومتابعتهم لما أنجزوه في دور الحضانه أو في المدرسة الابتدائية ، ومساعدتهم على إنجاز الواجبات المنزلية، واستكمال ما نقص عندهم من معرفة إما بالتلقين أو بالإرشاد إلى مصادرها ككتب العلوم والرياضيات واللغة والتاريخ .. إلخ ، ومحاولة تقريب المفاهيم إليهم ومناقشتهم في أفكارهم ، وتدريبهم على التفكير العلمي والمطالعة الواعية .

وتوضح بعض البحوث الحديثة أهمية دور الأم في النمو اللغوي والمعرفي للطفل ، حيث يُعد التفاعل بين الأم والطفل في المراحل الأولى من حياة الصغير نقطة انطلاق مهمة في تطور التواصل الكلامي بينهما ، إذ يستند هذا التواصل على الإشارات الجسدية، كالتعبير الوجهي المتنوع ، والإصدارات الصوتية ، والتبادل البصري والشمي . ويرى الكثير من الباحثين أن هذه المرحلة تُمهّد لاكتساب اللغة الكلامية ، وأن السياق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم والتفاعل بين الأم والطفل ، يُشكل حجر الزاوية في تطور الطفل اللغوي والمعرفي .

وتقوم الأم من خلال التفاعل مع الصغير ، بتحضيره أثناء السنة الأولى ليتمكن من تطوير عناصر مهمة وضرورية لتعلم اللغة ، ويأخذ التواصل الكلامي أهمية خاصة بين الأم والطفل في عامه الثاني ، إذ يتم اكتساب اللغة في إطار التفاعل والحوار واللعب ، وتصدر المثيرات اللغوية بما يتناسب ومرحلة تطور الطفل الذي تتاح له الفرصة كي يُعبر عن ذاته ويظهر كفاءته، ويضع موضع التطبيق ثروته اللغوية التي اكتسبها يوماً بعد يوم ، عبر تفاعله مع الأم .

كما تُشير بعض البحوث إلى وجود علاقة قوية بين النمو اللغوي عند الطفل ونسبة المحادثة بين الطفل والأم التي تظهر في أثناء النشاطات المشتركة بينهما، ويرجع النمو السريع عند الطفل الأول (البكر) إلى وفرة فرص النشاطات المشتركة بين الأم والطفل الوحيد ، كما أن المستوى التعليمي والثقافي للأم يؤثر في تنشيط النمو اللغوي والمعرفي عند الطفل .

• على المستوى الحسي :

الإثارة الحسية يجب أن تنمي كل أنماط الخبرات الحسية للطفل من تحسس ولمس وسمع وإبصار وذوق وشم وتوازن وحركة . وما الحديث مع الطفل والضحك والندبة والمهمة ومشاركته لعبه وتزويده بأدوات اللعب من كافة الأشكال والأصناف والألوان وتدريبه عليها إلا مظهر من مظاهر العناية بنموه الحسي . وبحكم الروابط الوجدانية المتميزة بين الطفل وأمه ، تلعب الأم - دون غيرها - دوراً مشهوداً في نمو الطفل الحسي لقدرتها على تحمله وتقبله . والأبحاث المعاصرة حول الحرمان الحسي تشير لأهمية التحفيز والحث والتنبيه كجزء من العلاقة بين الأم والطفل .

لذلك كله لا يكتمل دور الأم أو عملها في رعاية أطفالها إلا بالتنبيه والاستجابة ، فهي تنبه حواس الطفل وتنبه استجاباته للمؤثرات والمثيرات الاجتماعية . والتنبيه على هذا النحو من جانب الأم ، على درجة كبيرة من الأهمية ، بحيث إذا لم يتم هذا التنبيه فقد يؤثر تأثيراً سلبياً على سلامة التكوين الأساسي له .

والأم حينما تنبه الطفل ، فإنها تفعل ذلك لتصدر من الطفل استجابة فهي حين تصدر صوتاً ، فإنها تترقب من الطفل أن يصدر هو الآخر صوتاً مماثلاً . وفي دراسة ميدانية تم تسليط الضوء حول أهمية هذا الدور الاستثنائي للأم : فلقد أجريت دراسة حول الأطفال الذين يولدون قبل موعدهم المحسوب ، وهؤلاء الأطفال يتعرضون للحرمان من الاستثارة الحسية التي يحظى بها الجنين بينما هو في رحم الأم ، ذلك لأن بيئة " ما قبل الولادة " تزود الجنين بتشكيلة من الخبرات تكاد تشبه " التدليك " و " التريبت " الأمر الذي يعدّ جوهرياً للنمو السوي ، ومن ثمّ ، فإن الطفل المولود قبل موعده يبدأ حياته بنوع من الإعاقة من حيث نموه في المستقبل . وقد تصدت عالمة " روث رايس " لهذا الأمر في محاولة للإجابة عن السؤال التالي : ما الذي يحدث لو أن أمهات أولئك الأطفال المولودين قبل موعدهم عوضن - بجهد مقصود - ما حُرم منه أطفالهن من استثارة حسية ؟ لذلك اختارت خمسة عشر رضيعاً جعلتهم " المجموعة التجريبية " ، واختارت أربعة عشر رضيعاً آخرين جعلتهم " المجموعة الضابطة " وكان جميع الأطفال ممن ولدوا قبل الميعاد (أى ولادة مبكرة) ، ثم جرى تدريب أمهات " المجموعة التجريبية " وتعليمهن إعطاء استثارة خاصة لمدة خمس عشرة دقيقة ، أربع مرات في اليوم ، ولدة شهر ، بدءاً من اليوم الذي يعود فيه

الرضيع إلى بيته ، وكان أطفال هذه المجموعة يدلكون ويربت عليهم ، وبعد ذلك كانت الأم تؤرجح الطفل ثم تضمه إليها خمس دقائق مرّة أخرى ، هذا بينما أمهات أطفال " المجموعة الضابطة " لم يكفن بأي من هذه المهام ، وبالتالي لم يحظ أطفال هذه المجموعة بما حظي به أطفال " المجموعة التجريبية " . وبعد أربعة أشهر أحضر أطفال المجموعتين لإجراء اختبارات عليهم ، فأظهرت الآتي : المجموعة التي حظيت بالاستشارة اللمسية والحركية Tactile – Kinesthetic تقدمت تقدماً مميّزاً في الوزن ، وفي اختفاء الانعكاسات التي تختفى عادةً عند هذا العمر ، ولكنها لم تختف بعد عند أطفال " المجموعة الضابطة " .

• على المستويين النفسي والوجداني :

لقد ثبت أن الأمّ المتنبهة لإشارات الصغير والمبّية لحاجاته بانتظام ، والحاضرة بأحاسيسها وعواطفها في استجاباتها للصغير تُهيئ له الشروط المناسبة لتنمية سلوك " التعلّق الآمن " Secure Sttachment وتُعزز لديه الثقة بالكبار ، فالطفل يُعمم هذه الثقة في علاقته مع الآخرين ، بينما يتسم التعلّق بالقلق عندما لا تتنبه الأمّ لإشارات الصغير ولا تكثر بما يصدر عنه ، ولا تُظهر استجاباتها نحوه في الوقت المناسب ، وهذا ما يؤدي إلى القلق والغموض وعدم ثقة الطفل في الكبار ، ويظهر الخوف والهلع عندما يرى شخصاً غريباً للمرّة الأولى .

لقد أوضحت بعض البحوث المتعلقة بملاحظة الأطفال مع أقران اللّعب أن درجة الأمن والطمأنينة في العلاقة مع الأمّ ، تؤثر في درجة التفاعل مع الأقران ، فدخل الطفل في علاقات اجتماعية وتفاعلات مُتعددة مع الأتراب ، يرتبط بدرجة شعوره بالأمن في علاقته مع الأمّ .

ويرى بعض الباحثين أن مظاهر الخوف المُفرط (Phobia) التي يُعاني منه الطفل تكون نتيجة لاضطراب التعلّق بينه وبين الأمّ ، ويظهر هذا الخوف في حالات مُتعدّدة : الخوف من الظلمة ، أو الخوف من وقوع مكروه للأُمّ ، أو الخوف من الحيوانات ، أو الخوف من الذهاب إلى الروضة أو المدرسة . وتترافق هذه المظاهر ببعض الاضطرابات العضوية الوظيفية خصوصاً عندما تتسم العلاقات السائدة بالوسط الأسري بالتوتر والمشاجرة .

والحبّ الذي تقدمه الأمّ لطفلها يُعد أحد ركائز الطمأنينة الثلاث : الحبّ والثبات والتقبّل ، الضرورية لنموّ الطفل العاطفي والنفسي بخاصّة ، وأنّ كل علاقات هذا الطفل

تتمحور حول : علاقته بالأمّ بادئ ذي بدء ، علاقته بالأب (سنوضح في الفصل الرابع) ، ثم باقى أفراد الأسرة ، ومن ثمّ علاقته بالمجتمع الأكبر . لكن ينبغي أن يكون هذا الحبّ مطعماً بالسلطة . وحبّ الأمّ يعنى العطف والحنان والتفهّم العفوي (الحَدسي) الذى يشعر الطفل بأنّه مقبول لذاته لا كلّما يشاؤهُ الآخرون ، وهذا الحبّ ليس غاية فى حد ذاته بل وسيلة تتحدّد من خلالها حياة الطفل الانفعالية المستقبلية إذ يدوم إلى ما لانهاية فى نفسية الراشد . وفى الحقيقة يشكل واقع إحساس الطفل بانعدام تقبُّل الأهل له لذاته أحد أهم العوامل المثيرة لحدوث مختلف الاضطرابات النفسية عنده ، هذا ما كشفت عنه البحوث الميدانية العديدة .

أمّا منح الأمّ ما يُعرف باسم "الدَفء الوجداني" فهو عبارة عن خليط غير متكلف من العاطفة والملاحظة مع التشجيع والإعجاب وإدخال الطمأنينة إلى نفسه، بمعنى آخر أنها تشتمل على كل ما يجعل الرضيع يشعر بأنّه محبوب ومقبول ومطلوب . أنها المكونات الأساس التى تسبق المظاهر الأخرى للأمومة.

إنّ الأمّ عليها مسئولية فى غرس صفات وتوازنات نفسية فى طفلها منها : الجرأة، والشعور بالعزة ، والشجاعة ، وحبّ الخير للآخرين ، والانضباط عند الغضب وذلك بتمالك الأعصاب . كما أن عليها تجنبه وتحريه من صفات غير سوّية مثل : الخجل ، والخوف ، والشعور بالنقص والتدني أمام الغير ، والحسد، والبغض وغيرها من نواقص النفس .

• على المستوى الاجتماعي :

تضطلع الأمّ بدور مهم للغاية فى تنشئة الطفل ، فالتنشئة القائمة على المحبة والديموقراطية والتسامح تعزز شعور الطفل بالأمان والثقة فى العالم ، ونموّ الطفل فى جوّ مُفعم بالمحبة والحنان يفعل فعله فى تنمية ثقته بنفسه وقدرته على مواجهة تبعات الحياة: الهيئة والقاسية على حدّ سواء ، بينما تؤدى معاملة الطفل بتشدّد ونفور وكرهية إلى التعاسة والشقاء ، وتجعله ينظر إلى العالم نظرة قائمة متشائمة .

وعلى الأمّ أيضاً أن تُربى طفلها على التعاون والتعارف والصفح والجرأة فى حدود اللياقة والأصول ، ومراعاة حقوق الآخرين كيفما كانوا ، والالتزام بأداب

الطريق ، واحترام إرشادات المرور ؛ فإن ذلك يكون الإنسان المتزن اجتماعياً ، الذى يؤمن بقضايا أمته ويدافع عنها ، ويظهر فى المجتمع بمظاهر الرقيق ، البشوش ، المتزن ، العاقل ، العطوف .. إلخ .

• على المستوى الخُلُقِي :

على الأمّ تنمية الجوانب الأخلاقية فى شخصية طفلها ، بإطلاعه عن طريق الممارسة والتنظير على الأخلاق الحميدة التى نادت بها كافة الأديان السماوية بوصاياتها وتعاليمها . كذلك يقع على عاتق الأمّ مسئولية تربية الطفل منذ الصّغر على الصدق والأمانة والاستقامة والإيثار وإغاثة المحتاج واحترام الكبير وإكرام الضيف والإحسان إلى الجار ومحبة الآخرين .

والأمّ مسئولة أيضاً عن تنزيه لسان طفلها من السُّباب والتلفُّظ بالألفاظ النابية ، وعن كل ما ينبئ عن فساد الخُلُق وسوء التربية . ومسئولة كذلك عن ترفع ابنها أو ابنتها عن دنايا الأمور وقبح العادات واعوجاج السلوك وعن كل ما يحط بالمرءة والشرف والعفة . كذلك تعويد الطفل على تنمية مشاعره الإنسانية الكريمة ، وأحاسيسه العاطفية النبيلة كالإحسان إلى الفقراء ، والعطف على الأرامل والأيتام ، وغيرها من المسئوليات الكبيرة الشاملة التى تتصل بالتهذيب وترتبط بالأخلاق .

• على المستوى الإيماني :

على الأمّ أن تُربي طفلها على الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاتكال عليه ، وأن تعوده على ممارسة سائر العبادات كالصلاة والصوم والصدقة بشكل ميسر ، واصطحابه إلى دور العبادة لتأدية شعائره الدينية ، وغرس قيم الإيمان الصادق إلى قلبه . والقُدوة فى كل ذلك هى الأمّ التى تمرر التربية الدينية والإيمانية إلى طفلها ، وهى تعلم علم اليقين أن الإيمان الحقيقي له مكانة عظيمة فى حياة الإنسان من حيث استقراره النفسى والعقلى والوجداني ، وكذلك انسجام رغباته وأهوائه مع المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه ، فالإيمان يوفق بين هذه الرغبات والمُحيط الاجتماعى ، ويخلق توازناً فى شخصيّة الإنسان .

• على المستوى الجنسى :

وفيه تعلم الأمّ أطفالها وتقوم بتوعيتهم وتصارحهم عندما يصلون لمرحلة التعقّل بالقضايا

التي تتعلّق بالجنس والغرائز والزواج .. حتى يعلموا ما يحل لهم ، وما يُحرّم عليهم ، ويستقيم سلوكهم وفق آداب وتعاليم الأديان السماوية ، فيتعلّموا كيف ينشغلون بطلب العلم والعبادة عن تلبية الرغبات الغريزية الجنسيّة بالزنا والفسق .

هذا إذا عرفنا أن المنحى الجنسي قد طغى فى تلك الآونة طغياناً شديداً، وأصبح هاجس الشباب والشابات ، لما فقدوه من تربية صحيحة سليمة ، بل لما فقدته الأسرة والطريق العام من ضوابط التربية الصحيحة ، ولما دخل كل بيت من بيوتنا تلك الوسائل التكنولوجية الفضائية التي تبتث الإثارة الجنسيّة بكافة صورها وأشكالها المُقرّزة .

وعلى الأمّ أيضاً تربية أولادها وبناتها على آداب النظر والاستئذان والمُجالسة أو المُخالطة فى حدود ما سمحت به تعاليم الأديان السماوية والقوانين الأخلاقية وبالقدر المطلوب ، حتى تُجنبهم آفات هذا العصر .

